الإسلام ودعوة إلى الفكر

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وصحبه ومن والاه وبعد؛؛

حديث اليوم عن العقل والفكر، ودعوة لإعمال العقل والتدبر، وقدح زناد الفكر.

الدعوة إلى العلم أولى فروض الإسلام:

قد يظن البعض أن فرائض الإسلام محصورة في الأركان الخمسة وحسب! وهذا ظن بعيد، فكل أمر في القرآن من الحق سبحانه هو في الأصل أمر من الأعلى إلى الأدنى وهو على سبيل الفرضية، فالأمر بالتقوى ليس على سبيل الندب مثلا، والأمر بالإيمان وحسن العمل ليس على سبيل الندب، والأمر بأداء الأمانات ليس على سبيل الندب أو التخيير، وقس على ذلك، ولو نظرنا نظرة تأمل وتفحص وتدبر، لو جدنا أن أول ما نزل على قلب سيدنا رسول الله ﷺ من القرآن قول الحق ﷻ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ 1﴾ [العلق: 1] دعوة للعلم والفكر، وأمر بالفهم قبل العمل، والتدبر والتعقل قبل التعبد، فإن أحسن الإنسان الفهم والوعي، أحسن العمل، وإلا كانت العبادة مجردة من الروح، مجردة من الحس والشعور، طقوس وشعائر دون وعي وفهم وإدراك، ودون شعور لعظمة وجلال الخالق سبحانه.

لذا نجد أن القرآن الكريم احتفى بالعلم وحض عليه، وأهتم لأمر العلماء، وقرن العلم بالعمل، فقد ورد العلم في القرآن بال التعريف في تسعة وعشرين موضعا، منها قول الحق ﷻ ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7] فتلك الآية شديدة الوضوح في أن كتاب الله سبحانه به المحكم والمتشابه، وفيه ما يحتمل التأويل والمجاز، وفيه الصريح وفيه الكناية، ولبيان المبهم، والمتشابه، والمجاز، والمرسل والكناية، لا بد من عالم نحرير، وهبه الله تلك العلوم والفنون، وتلقاه على يد

شيخ بصير، بسند يتصل إلى الحبيب المصطفى ﷺ كما يتصل سند حفظ القرآن إليه ﷺ، وأن فهم كتاب الله وتدبره، لا يأتي بمجرد النظر، أو بمجرد القراءة العابرة السطحية، وإنما يحتاج لجهد، وقدرات ومواهب ومنح ربانية، يؤتيها المولى من يشاء من عباده، وصدق ربي إذ يقول: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[البقرة: 269]

وبين سبحانه أن أكثر الناس خشية له، هم العلماء لأنهم أعرف الناس بالله، يقول الحق سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ 27 وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ 28 إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ 29﴾ [فاطر: 27-29] هذه الآيات دعوة للفكر، من قوله تعالى ألم تر، والرؤية مشروطة بالفكر والنظر، مع النظر التدبر والتفكر، فهذا الماء وهذا الغيث النازل من السماء، فسقى الله به الزرع والنبات والإنسان والدواب والأنعام، وأنزل به من الأرض ثمرات تختلف في اللون والشكل والطعم والرائحة والنتيجة، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه، أي كما أن الله خلق الناس وجعل الماء أصل كل شيء حي، وجعل الناس على ألوان مختلفة، فمنهم الأحمر والأسود والأبيض، جعل الجبال كذلك، على ألوان، منها الأبيض والأحمر، والأسود، وهذا اعجاز علمي اكتشفه العلم الحديث، ونراه الآن على بعض شاشات القنوات الوثائقية، ويثبت أن لكل لون من هذه الألوان له خصائص وسمات معمارية وفنية معينة، ولها استخدامات شتى، حتى أن المعمار المسلم افاد من تباين تلك الألوان في واجهات العمائر، فعرف عندنا في العمارة الإسلامية ما يعرف بالأبلق، حيث جعلت واجهات العمائر باللونين الأبيض والأسود (الأبلق) وباللونين الأحمر والأبيض، والأحمر والأصفر(المشهر) وقد أثبت العلم الحديث أثر الماء في تلوين تلك الجبال وبنيتها التركيبية، فسبحان من أبدع وأعجز !

وغرابيب سود، أي جبال سوداء، وقيل السواد معناه الكثرة، وهو مصطلح شائع عند العرب، ومن الناس والدواب والأنعام، علم الفلك وعلم النبات وعلم الحيوان، وعلوم الجيولوجيا والطب، والتشريح والبيطرة وعلم الأجناس، واللهجات جمعتها تلك الآية المباركة، ثم بين سبحانه أن المعرفة شرط الخشية، وأن العلم بجلال الله وكماله وصفاته وقهره وجبروته وقدرته، مسوغ لخشيته، ومن ثم هو الطريق الأوحد لجنات عدن!

لذا يقول الحق سبحانه: عن الهالكين أنهم هلكوا بجهلهم، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ ويقول سبحانه في آية ماتعة ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾

الأساليب النبوية في التربية وإعمال الفكر

لعل هذا العنوان يصلح ليكون رسالة علمية مستقلة، بل ربما يتولد منه رسائل علمية كثر، فالناظر إلى سيرة الحبيب المصطفى ﷺ يجد أنها عامرة بالدروس والعبر، فكان ﷺ كثير الاهتمام بالنشء وتربيتهم، وإرشادهم بكل السبل والوسائل والطرق، ومداعبتهم والقرب منهم، والهش لهم، وتقبل الرأي والمشورة، والاعتماد عليهم، وتأهيلهم ليكون رجال المستقبل، وهذا رأيناه مع سيدنا عبد الله بن عباس في حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذي يرويه ابن عباس قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: " يَا غُلامُ، أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟ " فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: " احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "(مسند الأمام أحمد بسند صحيح)

وهذا الحديث فيه من الدروس والعبر والعظات ما فيه، ومن تلك الدروس استخدام النبي ﷺ ما نعرفه في طرق ووسائل التربية الحديثة بالعصف الذهني

حيث بدأ بسؤال يا غلام ألا أعلمك؟! ومثل هذا في حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يبدأ حديثه في ميدان التعليم بسؤال، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنَّ غُفِرَ لَكَ، مَعَ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لَكَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ(المسند بسند حسن) وفي الحديث عَنْ جُوَيْرِيَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى جُوَيْرِيَةَ بَاكِرًا وَهِيَ فِي الْمَسْجِدِ، تَدْعُو ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهَا قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ، فَقَالَ: مَا زِلْتِ عَلَى حَالِكِ قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَعْدِلُهُنَّ بِهِنَّ وَلَوْ وُزِنَ بِهِنَّ وُزِنَ، سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، ثَلَاثًا سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ " وَكَانَ اسْمُهَا بَرَّةَ فَسَمَّاهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُوَيْرِيَةَ (المسند بسند صحيح)

وهناك الكثير والكثير ومنها حديث سيدنا رسول الله ﷺ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» (الشيخان)

وهذا الحديث يدلنا على أكثر من عبرة

أولها: الأدب النبوي الشريف في الحض على الفكر والتدبر وإعمال العقل، وتوسيع أفق المتلقي، وفي كل الأحاديث السابقة نجد أن النبي ﷺ يتبع أسلوب السؤال ليقدح زناد الفكر، ويوقظ الذهن، وهنا يتَّبع النبي الأكرم، ﷺ هذا الأسلوب لتنشيط الأذهان، وتوليد الأفكار الجديدة، وتسهيل مهمة التعبير عنها، وهو أسلوب لجمع المعلومات في اجتماع محدد، ويطبق هذا الأسلوب في حال غياب المعلومات أو نضوبها وبروز حاجة ملحَّة لإيجادها، وهي عملية تفكير

بصوتٍ عالٍ وبغير قيود، وذلك بخلاف النقاش المنظَّم المحدد، من منكم اليوم أصبح صائما؟ ألا أعلمك كلمات؟ وهكذا مثل هذا الأسلوب يسهم في إعمال العقل والفكر، وتوليد ملكة النقد والفهم والتدبر.

الثاني: أدب صغار الصحابة في حضرة النبي ﷺ وأكابر الصحابة فعبد الله ابن عمر رضي الله عنه يعلم الجواب، ومع هذا يستحي أن يتخطى أكابر الصحابة، وهذا أدب رباني، وقيم نبوية عالية، رباهم عليها سيد الخلق ﷺ فهو القائل ﷺ ليسَ منَّا من لَم يَرحَمْ صغيرَنا ، و يعرِفْ حَقَّ كَبيرِنا(الترمذي بسند صحيح)

خلق بيئة إبداعية وعوامله:

لقد بذل النبي الأكرم ﷺ كل ما في وسعه لخلق بيئة من الإبداع، ينعم فيها الصحابة الكرام بالتفكير الحر المستنير، لفهم كتاب الله ﷻ، وكلام سيد الخلق ﷺ على الوجه السليم دون شطط أو غلو ، وهناك عوامل نستلهمها من سيرة الحبيب ﷺ، ونلمسها في أقواله وأفعاله إن أردنا مدينة تشبه مدينة سيدنا رسول الله ﷺ من بين تلك العوامل:

1- الحرية الفكرية: ولا أقول حرية غير مشروطة أو مقيدة، بل هي حرية منضبطة بضوابط الشرع، مقيدة بكلام ربنا وأمر نبينا ﷺ لا تخرج عنهما، ولكن بالفهم السليم، والضوابط التي أقرها أهل العلم من جيل الصحابة رضوان الله عليهم وحتى عصرنا، حرية ينعم فيها الفرد بالأمن والسلامة، ويجد فيها أن حر في تفكيره يطلق العنان لفكره وقلمه بعدما يأخذ على يد أهل العلم، وله مطلق الأمن في أن يصيب ويخطئ، طالما بذل الجهد والوسع إذا اجتَهَد فأصاب فله أجرانِ، وإن اجتَهَد فأخطَأَ فله أجرٌ (ابن ماجة صحيح) فالتعصب والتشرذم والتمسك بمذهب واحد دون غيره، وفكرة واحدة دون النظر لغيرها، والنظر لظاهر النص فقط، يقتل الابداع، فأكابر الصحابة نظروا إلى الظاهر وما حولهم ولم يخرجوا بدائرة الفكر إلى أمر ربما غاب عن الكثير منهم رضوان الله عليهم، فشجر البوادي كله يسقط ورقه إلا النخل وهو أمر ربما يرونه لكنه كما قيل السهل الممتنع، وهذا المقصد أصلا من حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق مساحة من التفكير

فإن الحرية الفكرية للداعية والمفكر هي مداد قلمه الذي بدونه لا ينتج ولا يثمر وأهل السنة والجماعة وأهل الصلاح من أهل الفكر رضوان الله عليهم لا يمنعون الحرية الفكرية، والنقد الذاتي بل يحضون عليهما ويدعون لهما.

فقد جاء عن عبد الرحمن بن مهدي أحد شيوخ مولانا الإمام الشافعي قولهم: "أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم"

الاعتماد على سواعد الشباب: لقد انتهج النبي ﷺ نهج الاعتماد على الشباب ووضعهم في مصاف القيادة، مع الأخذ بخبرة الكبار، فيكون ﷺ علمنا الجمع بين الأصالة والمعاصرة، والقديم والحديث، والافادة من قوة الشباب وفورتهم مع التعلم من خبرات السابقين، وهذا منهج إسلامي أصيل، علمنا إياه سيد الخلق ﷺ فالابتكار والابداع لا يعني نسف القديم بالكلية ولا هجره، بل إن القديم هو الجذر الثابت الراسخ، والحديث نتاج لهذا الجهد، وصورته المعاصرة، ولذا قرر الفقهاء أن مسائل الفقه تتجدد بتجدد الزمان والمكان والظروف، وأن الفتوى خصوصا المبنية على العادات والأعراف تتغير بتغير تلك العادات، وحتى الفتاوي المبينة على نصوص قابلة للأخذ والرد تتغير، لكن بضوابط شرعية، ألف فيها العلماء البحوث والمؤلفات

تبني المواهب: وهذا منهج نبوي شريف فهذا زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري رضي الله عنه من أخوال رسول الله ﷺ، يحكي زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قَدَم المدينة، وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقيل للنبي ﷺ أن زيدا قرأ مما أُنزل على النبي سبع عشرة سورة ثم قرأ على النبي مما حفظه فأعجب رسول الله ﷺ بقراءة زيد. لم يتوقَّف الإعجاب عند هذا الحد، بل أدرك الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ما تنطوي عليه شخصية زيد الفتى من قدرات فائقة يمكن أن توجه توجيها سليما يخدم الدعوة الإسلامية، فكان من كبار كتاب الوحي على حداثة سنة، كذلك نلمس تبني سيدنا رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس ولابن مسعود وللإمام علي واسامة بن زيد والحسنين رضوان الله عليهم جميعا

هذا المنهج الذى أخرج لنا: الإمام الشافعي رضي الله عنه، هذا المنهج الإبداعي الحر الذى أخرج لنا أبو الأسود الدؤلي الذى تدخل في تغيير شكل

النص القرآني باجتهاد وفهم وتدبر، ليصون كتاب الله من اللحن والتغيير، ثم تابعه نصر بن عاصم ويحيي بن يعمر، والخليل بن أحمد، هذا الجو الحر الذى أخرج لنا الأئمة أمثال: العز وزكي الدين المنذري وابن حجر والنووي والسبكي، والغزالي، بل وجعل الحضارة الإسلامية في مقدمة العالم في العلوم والفنون، في فن البصريات، والطب والفلك، والمقامات، واللغة والمجاز، والأدب، وعلوم الرياضيات واختراع الجبر، والهندسة، واكتشاف الصفر، والخوارزميات، ومعرفة النجوم ومطالعها، واستشراف المستقبل عبر المراصد، وغيرها من العلوم والمعارف والثقافات والفنون التي لم تكن توجد لولا تلك البيئة الفكرية الإبداعية التي حض عليها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم

ما اخلص إليه إن العودة إلى سابق عهدنا يحتاج إلى:

1- معرفة بما كان عليه النبي الأكرم ﷺ واقتفاء أثره ﷺ
2- نبذ التعصب والخلاف ورد الأمور الخلافية إلى أهلها من أهل العلم كما أمر الله
3- التمسك بالأصول والثوابت والمعذرة في الفروع التي لم يثبت فيها نص قاطع
4- تربية ملكة النقد والتفكير الحر عند الأجيال الناشئة
5- الحوار والحديث والمجادلة واعتماد نهج المناظرة والرأي والرأي الأخر في القاعات العلمية
6- تجنيب العوام مواطن الخلاف إلا فيما يتعلق بالأصول أو تصحيح المفاهيم
7- توحيد منصات الفتوى وجهات الإفتاء وعدم تركها في يد من يعرف ومن لا يعرف
8- الاعتقاد الجازم بأن الكمال البشري المطلق لسيد الخلق ﷺ
9- التعلم والتجربة والاعتراف بالخطأ مهما بلغت الدرجة والرتبة

وأخيرا أهدي أحبابي من الدعاة هذا الكشاف لمادة علم وفكر وتدبر والعلم والعلماء والعلوم في كتاب الله ﷻ

اللفظ	عدد المرات التي ورد بها
العلم معرفا بال	ثمانية عشرة موضعا
علم منكرة ومشتقاتها مثل يعلمون وتعلمون وأعلموا	484 مرة
عالم الغيب وصف للحق سبحانه	12 مرة
مادة فكر ومشتقاتها	19 مرة
أفلا يتدبرون	موضعين (2)
يدبروا	موضعين(2)
أقر ومشتقاتها	(11)
تلاوة	7 مواضع
مادة العقل ومشتقاتها	49
الألباب	16
الحكمة	25
الكتاب	162
مادة كَتب وكُتب	45
سيروا	14
انظروا	9

وكل هذه مواضع تقريبية وليست حصرية، تدل على مدى اهتمام القرآن الكريم بالفكر والعقل والتدبر وإعمال العقل والسعي والسير والنظر في خلق الله

جمعه ورتبه راجي عفو مولاه د محمد سالم الصعيدي الشافعي الأزهري

الأستاذ المشارك بالأزهر الأنور.